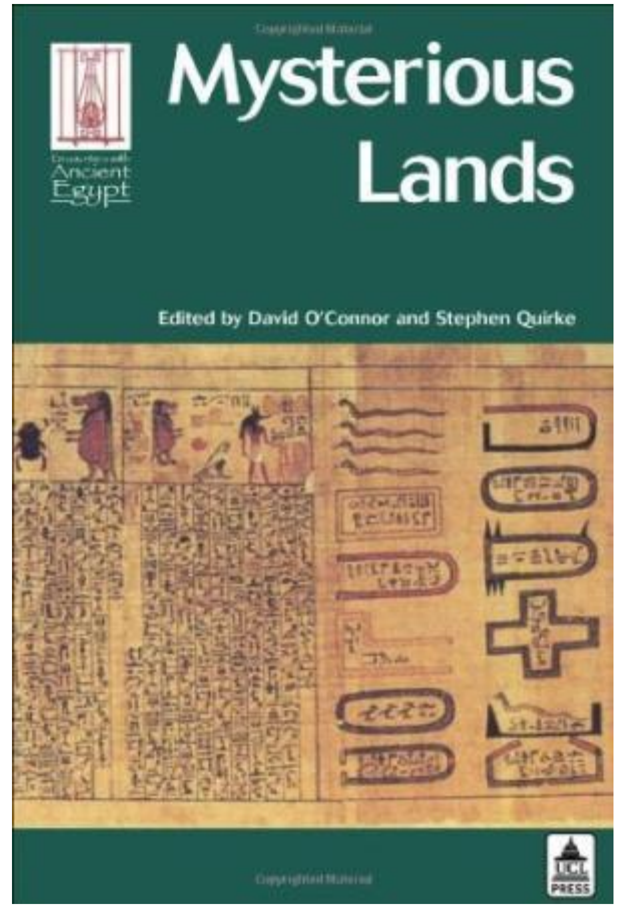
مصـر..الأرض الغامضة

عرض/ عزت زيان وعاطف معتمد



ينتمي هذا الكتاب إلى سلسلة من ثمان كتب مستمدة من أعمال مؤتمر بعنوان: "بحوث ملغزة في مصر القديمة"، عقد في معهد الآثار، بجامعة لندن، في ديسمبر ٢٠٠٢. ومنذ ذلك الوقت، ظهرت فصول جديدة عديدة للنشر، وتمت مراجعة وإعادة كتابة الأوراق التي كانت معدة أصلا للمؤتمر وتم اختيارها للنشر.

ويقع الكتاب في ٢٦٤ صفحة، ويضم أحد عشر فصلا، ويحتوي على ٦٠ شكلا توضيحيا،

فصول الكتاب:

١ . المقدمة: تحديد المجهول في مصر القديمة

٢ . المفهوم المصري للعالم

٣ . الرحلات والخيال في الأدب المصري

٤ . تحديد موقع بلاد بونت.

٥ . عرض لبلاد بونت: المشاهد الجغرافية والثقافية والفنية

٦ . ظهور ليبيا على أفق مصر

٧ . غموض "الشعوب البحرية"

٨ . تأملات في المشاهد الطقوسية في "كتاب الطريقين".

٩ . أبعاد العالم السفلي

المقدمة: تحديد المجهول في مصر القديمة:

. "الغموض":

تظهر "أوجه الغموض" المطروحة في هذا الكتاب في الفجوة ما بين ما نعتقد أننا نعرفه عن العالم من الآثار والجغرافيا والفلك، وما اكتشفناه في التقارير المصرية المكتوبة والمصورة عن العالم. ويبدأ عدم التوافق من مفهوم"الغموض" ذاته. فهناك كلمة مصرية تترجم إلى الإنجليزية عادة على أنها تعني "سر" أو "غموض"، وهي كلمة sst3، وهي ترتبط بكلمة st3، والتي تعني "صعب"، وعادة ما يستخدم الحرف الأول s بدلالة سببية، مما يجعل معنى الكلمة الأولى "جعله صعبا"، "جعله غامضا". وهذا مجال مجهول، وأصبح غير متاح لأنه يتضمن ما لا يجب أن يعرفه البشر. ولكن التطلع إلى المعرفة يمثل سمة مصرية قديمة وحديثة أيضا، إذ كان الإله "تحوت" يتحكم في المعرفة، وخاصة التواصل بالكتابة، وهناك روايتان قديمتان توضحان أنه لم يكن مطلوبا منه أن يشارك كل معرفته مع البشر، ولا حتى الملك. فهناك رواية معروفة من مخطوطات رومانية كان البطل فيها أميرا دمر نفسه تماما بسبب سعيه وراء كتاب مقدس، وهناك رواية أخرى، أقدم بحوالي ١٨٠٠ سنة، تتضمن انتقادا للملك لرغبته في معرفة موقع غرف "تحوت".

ولم تكن الأراضي المأهولة بالبشر جزء من هذا المجال المجهول عمدا، فهناك أرض أجنبية على هامش المعرفة المصرية القديمة يمكن أن تكون "أرض الرب"، ويمكن أن يتطلب الوصول إليها جهدا بشريا خارقا، ولكن لا يبدو أن مثل هذه الجهود كانت تعتبر عملا إلحاديا. بل على العكس، إذ كانت أراضي العالم الآخر والعالم السفلي الخارجة عن نطاق التجربة البشرية الحية تتطلب نوعا خاصا من الوصول، تماما مثل الشروط الخاصة المطبقة على من يريدون الوصول إلى الملك، أو حتى إلى كبار المسئولين، كما أن أشخاصا محددين بصفة خاصة هم من كان يسمح لهم بالوصول إلى الأماكن الداخلية في المعابد. فمنذ منتصف عصر الأسرة ١٨، كانت جداران غرف الدفن الملكية تغطى "بكتاب الآخرة"، وهو عبارة عن شريط من الصور المشروحة عنوانها العام "كتابات الغرفة السرية الموجودة في العالم السفلي". وكانت العبارات الافتتاحية تحدد أن "المعرفة" هي مضمون هذه الكتابات":

"أن تعرف قوى العالم السفلي، وأن تعرف واجباتها؛

وأن تعرف تجلياتها للإله رع؛

وأن تعرف القوى السرية، وأن تعرف ما في أوقاتها، وآلهتها؛

وأن تعرف استدعاء "إله الشمس" لها؛

وأن تعرف الأبواب والطرق التي يجتازها هذا الإله العظيم (إله الشمس)؛

وأن تعرف مسار الأوقات وآلهتها؛

وأن تعرف من يتلون الصلوات ومن يستحقون الهلاك".

والمعرفة هنا تنتمي إلى مملكة السماء. ففي كتاب "الملك كراهب لإله الشمس" تعتبر المعرفة التفصيلية بالعالم سمة مميزة لشخصية وسلطة الملك. وتتكرر عملية الاستبعاد على أساس "لا تدع أحدا يرى هذا" في كل الكتابات الجنائزية للمملكة الحديثة، للتأكيد على أن هذه المعرفة لا يجب أن يطلع عليها كل الناس. وفي ثلاثية "السماء . الأرض . العالم السفلي" تحمل ملامح وحركات السماء والعالم السفلي قوى كبيرة لا يمكن مشاركتها. وكانت الكتابات المصرية في هذا المجال تحدد كلمة "سر" أو "غامض"، بينما كانت المشاهد وفصول الأرض تأخذ صفة "صعبة" فقط.

ومن الواضح أن أراضينا الغامضة ليست مثل أرض قدماء المصريين، حيث يكشف هذا الفرق عن الاختلافات الأساسية بين سعينا للمعرفة، وخبرتنا في العالم، وبين خبرة ومعرفة وجهل المصريين القدماء بالعالم. وتتطلب الجغرافيا التاريخية ذاتية النقد، مع وجود الأسلوب الأثري في مقدمتها، توافر الملاحظة القوية لإمكانيات ومحددات المصادر. فبالإضافة إلى المصادر المكتوبة والمصورة، نقدم هنا الأدبيات الأكاديمية الحديثة الوفيرة عن نقد النصوص وتاريخ الفن.

الأراضي واللغات:

كان إعداد خرائط للعالم يمثل أحد التعبيرات الرئيسة عن التوسع الأوروبي منذ العصور الوسطى العليا، عندما كانت جنوه والبندقية تتنافسان عبر البحر المتوسط على معرفة طرق التجارة المربحة إلى الشرق، والتي كانت بمثابة أسرار تخضع للحماية الشديدة مثل أعلى تقنيات القرن الحادي والعشرين. وكان "العلم" الأوروبي يعتبر استكشاف كل الأزمنة والأمكنة بمثابة الواجب الرئيس، وأن أية عقبة أمام هذا المسعى، وأي غموض، يمثل تحديا مغريا للسلطة، ويذكرنا بأن البشر لا يستطيعون الحصول على كل الإجابات دائما، وأن هناك عوالم لا يمكن الوصول إليها. وفي آثار المجتمعات المتعلمة، فإن أي اسم قديم لأرض يختلف عن الاسم الذي نعرفه (حاليا) يجذب الانتباه سريعا، كما نرى في الجدل البحثي حول الأراضي غير محددة الموقع، ويثير عواطف تبدو بعيدة عن دعاوى "العلم" بالموضوعية. حيث تركت

المجتمعات المتعلمة أدلة مكتوبة تفصل بالكلمات مفاهيمها عن عوالمها، وهنا تجد الاهتمامات الحديثة مجالا جيدا للاختبار.

وتتضمن المشاهد في كل المجتمعات البشرية تجارب ثقافية أو مكتسبة. حيث تتطور العلاقة بالأرض بسبب الأوضاع المادية، بل وبسبب الطباع النفسية الفردية، بالإضافة إلى أساليب الحياة التي تطورت عبر الأجيال السابقة، وخاصة أساليب المعيشة في تلك المشاهد. ويمكن أن توضح اللغة شيئا عن مدى العلاقات الشخصية والاجتماعية المختلفة المحتملة مع الأرض. حيث يختلف تركيب الجملة والمفردات المتعلقة بالمشاهد من لغة لأخرى، إذ تقدم اللغات المختلفة أساليب مختلفة للتعبير عن الملكية والمقاومة والتعاطف: فلا تستطيع اللغة الإنجليزية . التي ليس فيها أسماء مذكرة ومؤنثة . أن تولد نفس مشاعر الارتباط مثل اللغة التي تكون فيها كلمة الأرض مذكرة (كما في المصرية القديمة)، أو مؤنثة (كما في الفرنسية أو الألمانية الحديثة). وهذا مجرد جزء واحد من شبكة العوامل المعقدة التي تؤثر على نظرة كل فرد للأرض. إذ إن الأنماط المحلية للمسكن والمعيشة توضح الظروف الرئيسة والتاريخية الخاصة لأية علاقة بالمشهد. حيث تعتبر طرق السكن في المكان، والحصول على الطعام، والتواصل مع الآخرين والعالم، من العناصر الرئيسة للحياة، لدرجة أنه يمكن بسهولة نسيان كيف تؤثر العوامل التاريخية على كل منها، وكيف أن أية طريقة حديثة تعتبر غير ضرورية بالنظر إلى أوضاع الأمم التي كانت متطورة تاريخيا. فعند دراسة الأماكن القديمة، يمكن أن يضطر الباحث إلى السفر إلى ما هو أبعد من المتوقع.

.الأرض في علم الآثار: لعنة الكتابة:

تقدم الكتابات المصرية إشارات كثيرة إلى أراضي وشعوب أجنبية في كل العصور؛ ويعتبر وجود "أجانب" بأزياء مميزة سمة متكررة في الفن المصري الرسمي وغير الرسمي. ولكن المدهش أن بعض البلاد أو الشعوب ذات الأهمية الكبيرة (ويأتي هذا الحكم مما يقوله المصريون عنهم) موثقون في المصادر المصرية فقط، وينطبق نفس الشيء على الكثيرين غيرهم، ولكنهم لا يحظون بنفس الأهمية لدى المصريين. وتعتبر هذه الظروف مثيرة للتحدي بالنسبة لمؤرخي مصر، وأفريقيا وحتى الشرق الأدنى وبحر إيجه. ومن المؤكد أن العمل الميداني الأثري في المناطق المناسبة سيحدد مواقع بعض، وربما كل، الأراضي "المفقودة" الكبرى، وثقافات سكانها، بل إن النصوص والمشاهد المصرية غير المكتشفة أو المتروكة حتى الآن يمكن أن تقدم بيانات حيوية جديدة عن بعضها. حيث يمثل السجل الأثري للأجانب الذين عاشوا ودفنوا في مصر مصدرا أوليا للمعلومات. وقد تم الحصول فعلا على مثل هذه البيانات عن بعض سكان النوبة، وعن الفترة الحضارية المسماة "الكرما Kerma" من العصر البرونزي الوسيط في النوبة الوسطى أو العليا. ومع ذلك، لا يزال هناك عدة مجموعات كبرى أخرى من الأجانب الذين كانوا في مصر في فترات مختلفة لا تزال غير محددة حتى في السجل الأثري المصري.

وخلال العصر البرونزي في مصر، حوالي ٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.، كانت الأراضي والشعوب التي كانت تبدو أكثر أهمية بالنسبة لمصر تتمثل فيما يلي، حسب اتجاه عقارب الساعة:

- حول بحر إيجة،
- الأناضول والشرق الأدنى،
- إلى الجنوب (النوبة على النيل)،
- الجنوب الشرقي (بين النوبة والبحر الأحمر، وربما حتى إلى الجزيرة العربية)،
- وأخيرا إلى الغرب، خاصة المناطق الساحلية وفيرة المياه مثل برقة، بل وأبعد من ذلك إلى الجنوب في الأقاليم الصحراوية غير المضيافة.

وفي الألفية الأولى قبل الميلاد، توسعت المعرفة الجغرافية المصرية كجزء من "النظم العالمية" الإغريقية ثم الرومانية، وكذلك عندما قام الفرعون نخو الثاني (حوالي ٦١٠ - ٥٩٥ ق.م.) من الأسرة ٢٦، برعاية أول عملية معروفة للدوران حول إفريقيا. ومع ذلك، يركز هذا الكتاب أساسا على العصر البرونزي.

ومن حيث فرصة التحديد على الأرض، تنقسم هذه الأراضي إلى قسمين حسب وجود أو غياب الكتابة. ففيما يتعلق بمناطق بحر إيجة والأناضول والشرق الأدنى، يمكن تحديد مواقع الكثير من الأقاليم الملائمة، لأنها موثقة في مصادر مكتوبة أخرى بخلاف المصادر المصرية، بالإضافة إلى كشف الأثريين عن ثقافاتها. فقد كانت ثقافات بحر إيجة معروفة للمصريين في العصر البرونزي المتأخر. حوالي (١٥٠٠.١٠٠٠ ق.م.)، وبطريقة غير مباشرة قبل ذلك أيضا. ويبدو أن منطقة الأناضول ودجلة والفرات كانت "أرضا مجهولة" بالنسبة لمصر قبل العصر البرونزي المتأخر، عندما كانت تلعب دورا رائدا في العلاقات الدولية التي تظهر مراسلاتها في رسائل تل العمارنة، في القرن ١٤ ق.م.، ومواد أخرى مماثلة. وقريبا من مصر، كانت أراضي "الشرق" . سوريا ولبنان وإسرائيل:فلسطين والأردن . على اتصال مستمر مع مصر طوال العصور التاريخية وما قبلها. فهنا يمكن تحديد أماكن العديد من الدول والأماكن والشعوب المشار إليها في الكتابة والفن المصري بقدر كبير من الدقة. وبالعكس، فإن المصادر المكتوبة المتاحة في عالم بحر إيجة والشرق الأدنى تشير إلى مصر بصورة تتناسب بصورة أو بأخرى مع الإشارات المصرية إلى كل منها. ويبدو أن عالم المصادر المكتوبة متسق في حد ذاته. ولكن مشاكل التحديد تتضاعف عندما تأتي الكتابة من مصدر واحد فقط، وهو مصر.

أما في مناطق الشمال الغربي، والغرب، والجنوب، والجنوب الشرقي من مصر، فلم يتم إنتاج كتابات محلية، أو لم تصل إلينا على الأقل، حتى بعد عصر البرونز. والأهم من ذلك أن معظم هذه المناطق لم تستكشف أثريا جيدا، إن كان هناك استكشاف أصلا. ومن بين البلاد أو الشعوب التي تظهر في المصادر المصرية، ربما كانت أوضح الأمثلة على المناطق المجهولة تتمثل في:

- "بونت"، التي تقع في مكان ما على الشواطئ الأفريقية أو العربية على البحر الأحمر؛
- إرم Irem، وهي منطقة إفريقية كبيرة أعلى نهر واوات Wawat، (شمال النوبة)؛
- وكوش Kush (وسط النوبة) (كان كل من واوات وكوش معروفين لدى المصريين القدماء والأثريين أيضا)؛
- وأخيرا ليبيا في الغرب، والتي تمثل صورة تاريخية معقدة. ففي الأصل، كان المصريون يشيرون إلى "الليبيين" على أنهم "تخينو Tjehenu أو تيشينو Tjemehu، وهذان مصطلحان منفصلان، ولكنهما كانا يستخدمان بصورة تبادلية. ولكن منذ القرن ١٤ ق.م.، ظهر خليط من أسماء الشعوب بصورة مفاجئة نسبيا في السجلات المصرية مثل : ريبو Ribu أو ليبو Libu (من أسلاف الاسم اليوناني ليبيا) ومشويش Meshwesh ..إلخ.

وبالعودة إلى الشمال، ومع بداية ظهور "القبائل" الليبية في الكتابات المصرية، بدأ أيضا ظهور الإشارات إلى ما يسميه المؤرخون المعاصرون "الشعوب البحرية"، التي يعرفها المصريون بأنهم سكان الأراضي الأجنبية "في البحار"، أو السكان الذين يعيشون "على جزرها". حيث انضمت شعوب عديدة منها إلى الليبيين في غزو مصر في حوالي ١٢٠٩ ق.م.، وقد تم صد هذا الغزو، ولكن بعد ٢٠ سنة شكلت مجموعات جديدة تيارا مهاجرا، يعتقد بعض الدارسين أنه أدى إلى انهيار الأوضاع السياسية في العصر البرونزي المتأخر في الأناضول والشرق؛ وإلى هجوم قوي، وإن كان فاشلا، على مصر ذاتها. وظلت مواطن هذه الشعوب مجهولة، وربما كانت تمتد غربا حتى صقلية وسردينيا، وربما كانت منتشرة في بحر إيجة وعلى شاطئ الأناضول في البحر المتوسط. وقد تم تحديد بعضهم على أنهم من سلالة الإغريق بصفة عامة. حيث يبدو أنهم ظهروا فجأة في سجل التاريخ، كما سقطوا منه فجأة أيضا. وتشمل الكتابات المتاحة من الشرق الأدنى إشارات إلى بعض الشعوب البحرية، وإلى الأعداء أحيانا في سجلات الأناضول الحيثية وشمال غرب سوريا. ويعتبر هذا مجالا خصبا للبحث، ولكن مع وجود أدلة سلبية في السجل الأثري. ونتيجة لذلك، ظهرت مدرسة منافسة لتفسير ظهور "الشعوب البحرية" على أنه لم يكن سببا، ولكنه كان نتيجة، لانهيار الإمبراطورية الحيثية. وطبقا لهذه الرؤية، فإن مجموعات بحارة الجزر والشواطئ انتهزوا فرصة الفشل الأمني عبر الأناضول والشرق حتى اختفاء الإمبراطورية التي كانوا يفترسونها. وتوضح هذه المجموعات المراوغة مصدر الغموض . أي وجود فجوة بين الخريطة الأثرية والمصادر المكتوبة عنها.

. القوائم الطبوغرافية:

ظهرت الإشارات إلى الأراضي الأجنبية في وقت مبكر يرجع إلى الألفية الثالثة ق.م.، وفي أوائل الألفية الثانية ق.م. كتبت قوائم تفصيلية بأسماء الأراضي الأجنبية وحكامها على تماثيل صلصال صغيرة تستخدم في طقوس اللعنة لحماية الملك والبلاد. ومع ذلك، كانت أسماء الأماكن الأجنبية مجموعة بطريقة مؤثرة في "قوائم طبوغرافية". ولكن توجد فجوة في السجل التاريخي، حتى كتابة الغالبية العظمى من الأمثلة الباقية في المملكة الحديثة والفترات اللاحقة.

وتشمل هذه القوائم الطبوغرافية أحيانا مئات من الشعوب والأماكن. وعادة ما تنظم مجموعات الأسماء في مجموعات متميزة جغرافيا: شمالية، شرقية، جنوبية، وغربية. ولا تشير هذه القوائم إلى مقياس، حيث تشمل مجموعة كبيرة من المناطق من حيث أحجام مساحاتها وسكانها، بدون وجود أي تمييز واضح بينها. ويمكن أن تقع الأماكن المحددة أسماؤها داخل كيانات إقليمية أكبر مذكورة قبلها في القائمة المناسبة. ولا يمكن افتراض المنطق والتوزيع المكاني لكل قائمة، ولكنها تحتاج إلى استنباط.

ويبدو أن نهاية السعي المعاصر والرحلة عبر الأراضي الغامضة في مصر القديمة ستتمثل في اكتشاف الذات، أو في الوعي ذي النقد الذاتي بالتحديد، مثل معظم الرحلات المادية والفكرية. ويتعرض علم المصريات للانتقاد من العلوم الاجتماعية الأخرى على إفراط اعتماده على الكتابة والفن، وعزلته عن العلوم الأخرى القريبة منه، وانفصاله عن علم الآثار النظري. ويظهر هذا المجلد قوة هذه المصادر المكتوبة والفنية، والحاجة إلى إدماجها في دراسة الماضي، بشرط أن يظل سياقها منظورا، وأن يدرس سياقها مثل مضمونها على الأقل، إن لم يكن بصورة أكبر منه.

٢ . المفهوم المصري للعالم:

تتلخص رؤية المصريين القدماء للعالم في واحدة من أقدم الخرائط التي تصور العالم على أنه مستدير. وبالرغم من أن رؤية المصرين القدماء للعالم وللكون من بعده لا تتطابق تماما مع الحقيقة التي نعرفها اليوم، إلا أنها لا تزال تمثل شهادة على تكامل وأصالة خيالهم.

وطوال التاريخ المصري القديم، كان هذا المفهوم موحدا في تفاصيله الأساسية. ومع ذلك، يعتبر مدى انتشاره بين جميع المصريين أمرا غير مؤكد. حيث تعتبر النصوص والصور الباقية . التي تصور أو تعكس الرؤية المصرية للعالم . مقصورة تماما تقريبا على الكتابات الجنائزية والمقابر، إذ كانت بمثابة خلفية لتوضيح غموض الخلق والبعث. وتعتبر هذه الإشارات أقل انتشارا في الكتابات الدنيوية المتعلقة بالحياة اليومية، مثل الروايات والنصائح والسير الذاتية التي تمثل معظم نصوص الكتابة المصرية القديمة، ونادرا ما كانت تظهر في التراتيل والصلوات قبل عصر المملكة الحديثة.

وفي هذا المجال، يمكن أن يكون لنا مبرر في استنتاج أن رؤية العالم القديم الموصوفة سلفا تمثل فقط المعرفة المتخصصة للقلة المتعلمة. ومع ذلك، يعتبر التفكير سمة بشرية عامة. فمن المؤكد أن المزارعين والحرفيين في مصر القديمة قد نظروا إلى السماء ليلا بنفس الفضول الذي كان لدى معاصريهم المتعلمين، وتوضح الأدلة المحدودة المتاحة أنهم رأوها بنفس الطريقة. وربما لم يكن لدى المصريين العاديين الفهم التفصيلي للعالم المدرك في الصور والنصوص الدينية المتخصصة، ولكن بعضهم كان يسمى بأسماء بعض الآلهة في وقت مبكر من المملكة القديمة، بما يعكس انتشار المعرفة بعناصره الرئيسة. وتشير حقيقة أن هذه المعرفة لا يبدو أنها كانت مشفرة في أساطير معينة إلى أنها تعكس رؤية عامة شائعة، وليست عقيدة دينية صاغتها النخبة المتعلمة.

وهكذا يمكننا أن نقول إن صورة العالم المحفوظة في المصادر المصرية القديمة كانت شائعة بين كل سكان مصر القديمة، بعناصرها الرئيسة على الأقل، وظلت ثابتة بلا تغيير طوال التاريخ المصري.

٣ . السفر والخيال في الأدب المصري:

يمكن اكتشاف نماذج مختلفة لعرض المكان بوضوح في النصوص الأدبية المصرية عبر تطورها التاريخي. حيث يتضح من تسلسلها التاريخي وجود انفصال تدريجي بين مصر كأمة والكتابات المصرية كخطاب ثقافي. فإذا كانت كتابات المملكة الوسطى "وطنية"، لأنها تركز على الهرم الرسمي للمجتمع المصري، فخلال الخمسة عشر قرنا التالية أصبحت الكتابات المصرية أكثر "فردية" بمعنى التحرر من المتطلبات السياسية. وكذلك أصبحت أكثر "عالمية"، بمعنى أن الأفكار والأساليب أصبحت أكثر قربا مما كان يحدث في الشرق في حالة العصر البرونزي المتأخر، والعالم اليوناني في حالة الكتابات الديموطيقية. وبدأ التطور نحو كتابة الرحلات الخيالية الذي استمر حتى ظهور أدبيات الرواية في المملكة الحديثة، والتي يوجد بعض أفكارها في أدب بلاد ما بين النهرين المعاصر، حتى وصل أخيرا إلى ذروته في النهضة الأدبية في الحقبة المتأخرة، عندما أصبحت الكتابات المصرية تشترك مع الكتابات الأخرى في عالم البحر المتوسط في عدد كبير من الأساليب القصصية وملامح المفاهيم.

وبالطبع فإن القول بأن الكتابة المصرية أصبحت "عالمية" لا يعني أن تطورها مستعار من التراث الأدبي الأجنبي. ولكن هذا المصطلح يتضمن أن الاهتمامات الوطنية لم تعد تلعب الدور الكبير الذي كانت تلعبه في تكوين الحيز الأدبي. حيث أصبح هذا الحيز في كل مكان في عالم البحر المتوسط يتميز بالانفصال عن أساليب تمثيل الزمان التقليدية، واللجوء إلى الحيز التخيلي أو التصوري. حيث استغل ظهور "التنوير" لإحلال الطبوغرافيا الدافئة للأساطير الأوروبية محل الجغرافيا الباردة في الروايات البورجوازية، واستغلت الاتصال بأشكال التراث الأدبي المجاورة لتغيير الجغرافيا الواقعية لرحلات المملكة الوسطى إلى الطبوغرافية التخيلية في الروايات المصرية المتأخرة.

٤ . تحديد موقع بلاد بونت:

يختفي اسم "بونت" من النصوص غير الدينية بعد المملكة الحديثة، بغض النظر عن بعض الاستثناءات القليلة. فإذا كانت بلاد بونت منطقة في إفريقيا، يمكن تفسير هذا بانقطاع العلاقات بالبلاد الواقعة جنوب أسوان، ثم إعادة الغزو المحدود خلال الأسرة ٢٦، ثم ظهور كيان قوي في السودان يمثل حاجزا بين مصر وبلاد بونت. ومع ذلك،

فبعد عودة الاتصالات بحرا على الأقل خلال الحقبة اليونانية، لا تزال هناك نقطتان بلا تفسير: الإشارة إلى "الحدود النوبية"، وهروب بطليموس العاشر إلى "بونت" أو عبرها.

أما إذا كانت "بونت" تحتل الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر، من البتراء العربية حتى اليمن، يمكن أن يكون هناك تفسير أكثر تماسكا. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد، مرت علاقات مصر بشبه الجزيرة العربية وسكانها بتغيرات مهمة. فهذه الأرض . التي كان يصعب الوصول إليها حتى من أقرب نقطها، والتي لا يعرف الغرباء عنها الكثير . أصبحت منطقة تحتلها ممالك صغيرة من تجار القوافل، وعلى اتصال مستمر بالشرق الأدنى، وتتحكم في الطرق التجارية للمواد العطرية بطريقة منظمة، وأصبحت ترتبط تحديدا بهذه الطرق.

ومهما كان عدم دقة المكان المحدد لموقع بلاد "بونت" في المملكة القديمة وما بعدها، إلا أنه يرتبط بحقيقة كانت تزداد وضوحا عبر القرون. ومن المهم أن "بونت" كانت تظهر فقط في النصوص التاريخية أو الشخصية خلال المملكة القديمة، ولكنها لم تظهر في النصوص الدينية حتى المملكة الوسطى، وذلك عند بداية زيادة نطاق البعثات إلى هناك. ولكن اقتصار ظهور اسم "بونت" في الحقبة المتأخرة على النصوص الدينية لا يتضمن أن هذه البلاد كانت مجرد شيء غامض اختفى في النهاية. إذ إن هذه النصوص تحفظ مفردات حقب قديمة، كما هو متوقع منها كحامية للتراث المقدس.

٥ . بلاد بونت: المشاهد الجغرافية والثقافية والفنية:

قبل محاولة الجغرافي كلاوديوس بلطميوس في القرن الثاني الميلادي أن يرسم العالم المعروف، يبدو أن تصوير المصريين القدماء للعالم كان يقتصر على الصور الرمزية للكون لأغراض مقدسة. فبدلا من توضيح المسارات الأرضية، كانت هذه الصور تهدف إلى وصف المسار اليومي للشمس عبر سماوات النهار والليل، أو طرق وبوابات العالم السفلي، وكل ذلك لمصلحة الميت. وباستثناء خريطة جيولوجية مفصلة جدا لمنطقة استخراج الذهب على أوراق البردي (بردية تورين)، لم تصل إلينا خرائط بالمعنى الحديث من مصر القديمة قبل العصر القديم المتأخر، بالرغم من أنه من المحتمل أنه كانت هناك خرائط لمناطق أجنبية لأغراض عسكرية وتجارية. ولكن نظرا لعدم وجود مثل هذه الخرائط، كان الباحثون طوال القرنين الماضيين يحاولون إعادة تركيب خرائط للعالم المصري باستخدام قدر كبير من المعلومات القديمة، بما في ذلك قوائم أسماء الأماكن الأجنبية، ومشاهد الانتصارات البعيدة، والشواهد الأثرية على المنتجات التجارية والمواد الخام المستوردة.

ويتمثل أفضل تجسيد لقدرة الفنانين المصريين على توثيق التنوع الطبيعي والبشري لخدمة الفن الديني في تمثيلات حملة الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت، والمنحوتة على جدران معبدها الجنائزي، الذي يقع في منطقة طيبة الغربية المعروفة باسم الدير البحري. والمشهورة بتصويرها لحاكم بلاد بونت وزوجته البدينة، وظهور مجتمع من المساكن المسقوفة بالقش، وغابة من الأشجار النادرة، وحيوانات غريبة على مصر في عصر حتشبسوت مثل الزرافة ووحيد القرن.

حيث يصور الحائط الغربي للمعبد الرحلة بالسفن إلى بلاد بونت، والعودة بهذه السفن محملة بحمولة ثمينة من الأشجار الحية، وكتل خشب الأبنوس، والبخور، والتبر، والعاج، وقرود البابون والفهود، وبيض النعام.

وعلى عكس البلاد الأخرى المحيطة بمصر، في سورية وفلسطين وليبيا والنوبة، والتي خضع كل منها في وقت ما لسيادة مصر، أو كانت مصر تمارس السيادة عليها، كانت العلاقة بين مصر وبلاد بونت مختلفة تماما. فبالرغم من آلاف السنين من التجارة غير المباشرة والمباشرة أحيانا مع بلاد بونت، لا يوجد دليل على أنها خضعت عسكريا لمصر. بل إن مشهد بلاد بونت الشهير في معبد حتشبسوت لا يأخذ شكل الغزو، بل يعكس التبادل الرسمي بين مبعوثي البلاط الملكي المصري والحكام المحليين في بلاد بونت.

٦ . ظهور ليبيا في الأفق المصري:

غير الكشف الأثري لقلعة غربية كبيرة الصورة التاريخية لظهور ليبيا، حيث سمح بإدراك مدى تدخل الرعامسة في المنطقة، والقصر النسبي لتلك الحقبة. وهكذا يمكن الآن قراءة تاريخ الألفية الثانية المتأخرة لمصر وليبيا بصورة أدق، حتى إذا ظلت التفاصيل غامضة.

وفي الألفية الثالثة وأواخر الثانية، كان البلدان منفصلين إلى حد بعيد، مع وجود شعب مصري مستقر، وشعب ليبي متنقل، ولكن حدث شيء بعد ١٤٠٠ ق.م. أطاح بالاستقرار في الصحراء الغربية. حيث تمثل المحرك الرئيس للتغير في ظهور دائرة للتجارة شرق البحر المتوسط في أواخر عصر البرونز، وبحلول القرن ١٤ ق.م.، كان هناك تجار، وربما كان هناك تشغيل معادن على جزيرة بيتس Bates. حيث أدى ظهور مستعمرة أو مستعمرات تجارية . دائمة أو موسمية . إلى تغيير توازن الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المحلية، وحفز ظهور التجار كعناصر اقتصادية على تكوين "طبقات" تتميز بالوصول إلى الموارد داخل جماعات عرقية موجودة، وربما كان ظهور التجار سببا في جذب جماعات لم تكن موجودة في المنطقة من قبل. وكانت المنافسة الاقتصادية سببا في الصراع كما يتضح من بردية العمارنة، حيث يبدو أن شريكين في تجارة شرق البحر المتوسط . المصريين والميسينيين اليونانيين . أغارا على الليبيين. ومع حدوث هذا التطور العسكري، ظهرت أسماء جديدة في المصادر المصرية: مشويش وليبو Libu. وظهرت استجابة المصريين في القرن ١٣ ق. م بإنشاء قلعة كبيرة في زاوية أم الرخم. وطوال قرن كانت الكتابات المصرية تسجل نجاح الأسرتين ١٩ و ٢٠ في صد محاولات هجرة الليبيين إلى مصر، ولكن في عصر الأسرة ١٢ _ حوالي ١٠٧٠إلى ٩٤٥ ق.م. _ ظهر الليبيون سادة على مصر.

ويمكن استنتاج خطوط عريضة مشتركة بين هذا التاريخ وتواريخ تطور الشعوب الأخرى. ففي إطار العلاقات الخارجية المصرية القديمة، يمكن تصور وجود نمط مماثل في النوبة الدنيا في أواخر الألفية الثالثة ق.م. من جانب دولة نوبية موحدة ظهرت إلى الوجود كنتيجة جزئية لهذه التجارة. وخلال أوائل الألفية الثانية، احتلت القوات المصرية النوبة،

وظهرت سلسلة من الحصون حتى الشلال الثاني. ولكنها تركت بحلول نهاية القرن ١٧ ق.م.، عندما ظهرت دولة نوبية أكثر قوة من مصر في كرمة Kerma. وفي القرن ٨ ق.م.، نجحت إمبراطورية نوبية متأخرة في غزو مصر، حيث حكمها ملوكها لمدة ٥٠ سنة باسم الأسرة ٢٥. وهناك تسجيل للانتصار الذي حققه الملك النوبي بيي Piye على لوحة تذكارية نصبت في جبل باركال Barkal. ولكن لا يوجد انتصار ليبي مماثل مكتوب، ولكن نطاق وطول الوجود الليبي كان يفوق كثيرا هذا النجاح النوبي الملموس. ولكن يستطيع الكشف الأثري في الأراضي الليبية إعادة بناء علاقات مصر بجيرانها الغربيين، والتي أدت إلى عنف الاحتلال من الجانبين.

٧. لغز "شعوب البحر":

يمكن القول إن تعقيد موضوع شعوب البحر يمثل الصعوبة الكبرى في إعادة تركيب ثقافاتها، فضلا عن أصولها. ويمكن أن يقول البعض إن الأمر ليس كذلك، وإن الأدلة النصية المتاحة تعتمد على المفاهيم والاهتمامات المصرية وتمثلها بالنص والصورة. ويمكن القول أيضا إنه لا يوجد "شعب بحري" واحد، وإن هذا مجرد مصطلح مصري، يمكن أن يكون بمثابة "تفسير" لمجموعة من الأحداث المختلفة: وبناء على هذا ، فقد كان هناك مجموعة من الشعوب التي جمعها المصريون معا تحت مسمى "الأجانب الذين من البحر".

ومع ذلك، فإن الأدلة النصية والتمثيلية المتاحة يمكن أن تبدو محيرة في حد ذاتها. فكل الأدلة المتاحة عن أسماء الأماكن والحكام مصرية، بل إن نصوص الملك رمسيس الثالث تصف الشعوب البحرية التي اكتسحت شرق البحر المتوسط، وقضت على الدولة العتيقة هناك، حتى هزمها المصريون. وبالرغم من أن النصوص المصرية تحدد خمسة شعوب مختلفة، إلا أن المشاهد التمثيلية المصاحبة تعرض اثنين فقط.

ولكن ربما كانت الطبيعة البسيطة للمنهجيات المطبقة على "غموض" الشعوب البحرية هي السبب في فهمنا الحالي غير المناسب للأحداث المعنية. ويجب الاعتراف بأن مرور قرنين من الزمان، وظهور الكثير من المجلدات الحديثة عن "شعوب البحر"، أدى إلى ظهور الكثير من الأدلة المضطربة والجدل المستمر. ففي جميع الحالات، استخدم الباحثون كل الأدلة المتاحة من جميع الفترات الزمنية في محاولاتهم لتتبع الشعوب البحرية. ولكن من الواضح أن هناك حاجة إلى مجموعة من المبادئ المنهجية لمعالجة الأدلة الجزئية والمتنوعة المتاحة. وتتوافر هذه المبادئ في علم الآثار ونقد النصوص التاريخية. حيث تتطلب ممارسات الجغرافيا التاريخية المعيارية من المؤرخ أن يتناول النصوص في ضوء سياقها وتاريخها. والأهم من ذلك أن الأدلة الأثرية والأدلة المادية المتعلقة بالشعوب في كل منطقة، يجب أن تمثل إطارا للمناقشة.

ويجب أيضا تحديد الأهمية النسبية التي يجب أن تمنح في التحليل والتفسير للنصوص المصحوبة بمعلومات أثرية، بالمقارنة بالنصوص التي توجد غير مصحوبة بذلك. ففي ضوء التحيز الحتمي المستقر والمتضمن في إعداد كل المصادر المكتوبة، لا يمكن التشكيك في أهمية الأدلة الأثرية المساندة لتحديد الأنشطة المحتملة للشعوب البحرية

المختلفة. وهكذا يبدو من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تقييم دعاوى الارتباط بين الأسماء (بين التسمية المصرية واسم المكان المقصود) على أساس علم اللغويات بدون وجود أدلة أثرية مساندة لتحديد ما كان يحدث فعلا على الأرض من حيث التغير في السكان ومن حيث التغير في الثقافة المادية.

ويجب أن يكون هناك تحليل مقارن للأدلة الأثرية الحديثة على حدوث "تغير ثقافي عظيم" في البحر المتوسط، وهو الاستعمار اليوناني والفينيقي من القرن الثامن ق.م. فصاعدا. إذ سيكون من المفيد أن نرى ما إذا كان توزيع الآثار على الأرض سيكشف عن وجود نمط مختلف بين هذين "الغزوين" المزعومين للمنطقة. فحاليا يعتبر وجود وتوزيع الفخار "المسيني" أفضل دليل على ما كان يحدث في الفترة الأولى.

ومع ذلك، نجد أنفسنا لازلنا نطرح الأسئلة الأساسية المتعلقة بشعوب البحر. حيث ستظل لغزا غامضا، لأن المصادر الدالة على وجودها وتأثيرها تقتصر إلى حد بعيد على تعبير المصريين القدماء عن العالم بالكتابة والفن. وحتى تظهر أدلة أثرية جديدة تصحح هذا الخلل، يبدو أن "شعوب البحر" ستظل تجسد الانفصال التقليدي بين الأدلة الأثرية والتقارير التاريخية المتعلقة بالماضي.

٨ . تأملات في مشاهد الطقوس في "كتاب الطريقين":

كانت نخب المصريين القدماء عبر التاريخ تدفن بطقوس واضحة، بالرغم من أن التفاصيل الدقيقة كانت تختلف من عصر لآخر. ففي البداية، كان الذين يدفنون على حافة الصحراء يوضعون مباشرة في الأرض، أو في شيء من الحصير أو السلال. وبمرور الوقت، أصبحت الحماية المادية للجسد أكثر قوة وزخرفة، وكان الجسد نفسه يحظى بعناية دقيقة ضد التحلل. وبنهاية الألفية الثالثة ق.م.، كان المصريون الأثرياء يوضعون في توابيت خشبية مستطيلة. حيث كانت تزخر بتوليفات معقدة من الكتابة والرسم، والتي وصلت إلى ذروتها في توابيت الأرز المدهشة في الأسرة ١٢ (القرنين ٢٠ - ١٩ ق.م.).

وكتاب الطريقين عبارة عن مجموعة من الكتابات والنقوش التي تظهر على التوابيت والمقابر الخاصة بالمصريين القدماء، كان الغرض منها توجيه الميت في الحياة الآخرة.

وقد وصف "كتاب الطريقين" بأنه بداية "علم الكون" عند المصريين. حيث كانت كتاباته ونقوشه توجه الموتى بالنسبة إلى الطرق والمسارات التي في العالم الآخر، أو العالم السفلي الغامض. وهذان الطريقان عبارة عن طريقين مصورين يجتازان عددا من العقبات، ويغطي هذان الطريقان مجرد ثلث مساحة أرضية التابوت فقط. ويوجد في النص بوابات عديدة إلى الظلام والنار. وهناك جدران من اللهب تصيد الغافلين، وجدران مرتفعة تحمي الآخرين. وهكذا يمكن

أن نتصور أن هذه النصوص كانت تعتبر بمثابة خريطة للميت. وكذلك يمكن أن نعتبر أن "كتاب الطريقين" كان بمثابة دليل إلى مسارات الآخرة. حيث يمكن هذا الدليل الميت من السفر بأمان عبر مراحل الموت لتحقيق الهدف النهائي المتمثل في سعادة الوجود في معية الآلهة.

وعند تحليل الكتابات والرسوم على التوابيت والمقابر في كل مكان، يجب أن نضع في أذهاننا سياق كل نص منها على حدة. حيث يمكن تفسير الأعمال التي على التوابيت على عدة مستويات. فعلى المستوى الفردي، يمكن أن نقرأ بعض العناصر الرئيسة ونرى صور الأشياء. وعندما ننتقل إلى سياقات أوسع، سنبدأ أولا في رؤية الأجزاء المكونة للتابوت، ثم التابوت نفسه، حتى نصل إلى مركب المقبرة، وغرفتها وبنائها، وغرفة الدفن، والتابوت، وكل الأشياء الموجودة فيها. ويمكن أن نتصور أن كل هذه المكونات عبارة عن "حاويات" تحمل أشياء رمزية . إن لم تكن حقيقية . داخلها. وتمثل الخرائط مجرد إحدى هذه الحاويات، حيث تقدم مشهدا بكل مكوناته وملامحه الرمزية في إطار معين. ويمكن القول إن الطقوس الواردة في "كتاب الطريقين" مجرد شكل آخر من التعبير الرمزي المتضمن في المشهد الرمزي للحياة الآخرة، كما تصورها المصريون القدماء. وكما تشير الرسوم التي بداخل التوابيت، يمكن أن نرى انتقالا لبعض وظائف المقبرة إلى التابوت. ويمكن أن نعتبر التابوت بمثابة مقبرة نموذجية، أو حتى تصغيرا للكون ذاته، حيث يرث بعض أشكال ووظائف وطقوس المكون الأكبر للمقبرة.

ومع ذلك، يتضح للمرء مهما كان توجهه أن تحليل الحيز والمشهد الطقوسي "لكتاب الطريقين" يساعد كثيرا في تفسير وفهم تعقيدات المفاهيم المصرية القديمة عن الكون من الناحيتين المادية والغيبية.

٩ . أبعاد العالم السفلي:

لا يوجد مبرر للشك في أنه من الأدبيات الجنائزية المصرية القديمة قياسات خطية لملامح العالم السفلي. وبينما لا يمثل هذا الأمر الأسلوب السائد في وصف العالم المجهول، إلا أنه يؤكد على دقة المعرفة في المجال الديني. إذ إن القيم العددية المصحوبة بوحدات القياس توفر بيانات غزيرة لفهم رمزية الأرقام. ومع ذلك، تظل مسألة القياس في حد ذاته أهم من الارتباطات الخاصة بهذه الأرقام. فما الذي يكمن وراء الإستراتيجية التي تجمع بين وحدات القياس والأرقام، وذلك في سياقات بعيدة جدا عن عالم القياسات؟ وربما كان لهذه المقاييس تأثير على الشخص الذي يقوم بها والشخص الذي يستقبلها. وربما يحدد هذا التأثير استخدام هذه المقاييس، وليس الاعتقاد بحقيقة القياس ذاته. وربما كان قرار تأكيد المعرفة بالعالم السفلي من خلال تقديم هذه المقاييس أكثر أهمية من الرقم والوحدة المحددين بالنسبة إلى الكتاب والقراء القدماء. ويمثل هذا الوصف الدقيق للعالم، أي علم الكون الرياضي، توقعا للحياة الآخرة باستخدام أساليب المعرفة السائدة في عالم حضري طبقي اجتماعيا، ويمارس الكتابة والحساب، وخاصة حساب الزمن. ولا يمكن الإجابة على أي من هذه الأسئلة بدون قدر من المعرفة بمدى أهمية أو هامشية المكان من حيث القياس الخطي في إطار الكتابة المصرية عن الحياة الآخرة.

وكان دفن الصفوة في مصر القديمة يتضمن إجراءات دقيقة للحفاظ على جسد الميت، وكان هذا يتطلب الاهتمام به عدة أشهر من الموت إلى الدفن. ويوضح تسلسل الأيام المرسوم على ظهر بردية ترجع إلى أواخر المملكة الوسطى أن التحنيط في ذلك الوقت كان يستغرق ٧٠ يوما، كما جاء في الكتابات اليونانية القديمة عن مصر. ومنذ منتصف الألفية الثالثة ق.م.، كانت المصادر المكتوبة والمصورة تشير إلى الطقوس التي تمارس خلال هذه الأسابيع والشهور. وقد وصلت هذه الطقوس إلى السجلات بطريقة غير مباشرة، لأن نفس كلمات هذه الطقوس . أو كلمات متصلة بها . كانت مكتوبة على أشياء معينة في المقبرة أو منقوشة على جدرانها. وكان أسلوب وصف حيز الحياة الآخرة بهذه الكتابات الدينية يختلف كثيرا عبر الزمن، وكان يختفي تماما في عدة فترات. ومع ذلك، يعتبر حجم الأعمال الباقية وهذا السياق الكمي مهما لتقدير الفقرات القليلة التي تحتوي على مقاييس العالم السفلي. وإجمالا، فإن هذه الممارسة المتقطعة للكتابة عن الخلود تشكل معظم الكتابات الجنائزية المكتوبة . وحتى الشفوية . في تاريخ الإنسانية. ويمكن أن يؤدي هذا الكم الكبير من الكتابة إلى التشجيع على التنوع في التعبير عن مواجهة الموت والعالم السفلي. وتعتبر هذه المقاييس أحد الأجزاء الصغيرة في ترسانة مؤلف الكتابات الجنائزية عند المصريين القدماء.

١٠ . "كتاب الفيوم": الغموض في مشهد معروف:

يمثل "كتاب الفيوم" الاسم الحديث لمجموعة من النصوص المصرية من الحقبة اليونانية الرومانية تقدم "خريطة" أو وصفا لمنطقة الفيوم. وقد وصل هذا الكتاب إلينا في عدة صيغ. ويحتمل أن يكون النص الأصلي نصا هيروغليفيا مكتوبا على البردي، مع توضيحات مستفيضة، وهناك عدة نسخ منه، ولكن بعضها مجزأ جدا. وظهرت أفضل نسخ محفوظة من أجزاء وقطع في ثلاث مجموعات حديثة، وبالرغم من اعتبار هذا الكتاب كيانا واحدا، إلا أن المخطوطة الهيروغليفية الرئيسة كانت من البداية مقسومة على لفافتي بردي. وربما كانت الممارسة المصرية . في حالة النصوص الطويلة جدا . تتمثل في تجميع لفافات من طول معياري لتوفير الحيز اللازم لاستيعاب النص كله. وربما كان النص الكامل لهذا الكتاب أقل من ١٠ أمتار، وعادة ما يشار إليه على أنه مكون من جزأين.

ويوجد نص هيروغليفي آخر لبضعة أجزاء من النص على جدران معبد كوم امبو، في جنوب مصر العليا. ومن الواضح أن هذا النص مقسوم إلى نصفين بحد فاصل، ولا توجد به أية توضيحات. وتظهر المصادر الباقية من هذا الكتاب في عدد من الكتابات الهيروغليفية على البردي بدون توضيحات. ويوجد معظمها في صورة أجزاء متفرقة صغيرة، ولكن هناك نسخة كبيرة تفتقر إلى البداية، ولكنها تحتوي على حوالي خمسة أسداس النص المعروف على البردي، بما في ذلك نهاية النص.

ويعتبر السياق الذي نسخ واستخدم فيه هذا الكتاب واضحا. فلا يوجد دليل على استخدام أي من النصوص المصرية في الحقبة اليونانية الرومانية، إلا من جانب الكهنة في المعابد. ولكن سبب كتابة هذا النص غير واضح. وكان يمكن أن يكون بلا قيمة كخريطة عملية وكان يبدو أن جمهوره الأساسي كان يتمثل في الكهنة في الفيوم. وبالرغم من أن

بعض أجزائه يمكن أن تناسب جدران المعابد، إلا أن البعض الآخر ليس كذلك. حيث توضح النصوص الباقية أنه كان نصا متواترا ومعروفا، ولا يمثل مجموعة خاصة. ويبدو أنه كان يتناسب مع الأنشطة البحثية العامة للمعابد اليونانية الرومانية، والتي كانت تسعى إلى تسجيل الثقافة المصرية التقليدية والحفاظ عليها، وذلك في الوقت الذي كانت فيه مصر تتعرض لتهديد الثقافة اليونانية ذاتها. وكان هذا النص معروفا في كوم امبو أيضا. وهناك مؤشرات على أن معابد الفيوم في الحقبة اليونانية الرومانية كانت تجمع المخطوطات من كل أنحاء مصر، ولا يوجد مبرر للشك في أن المخطوطات كانت تتحرك في الاتجاه المقابل. فلم يكن الكهنة المسئولين عن نصوص المعبد في كوم امبو يفتقدونه، بل يمكن أن نفترض أن "كتاب الفيوم" حظي بإعجابهم هناك.

١١ . الأراضي الغامضة . السياق الأوسع:

كان هناك نوعان من المواجهة بين مصر والبلاد الأخرى: المواجهات التي حدثت فعلا، وبعضها معروف من خلال المصادر المصرية فقط، والمواجهات مع البلاد المتخيلة التي اخترعها المصريون. وهذان النوعان ليسا متميزين تماما. إذ يمكن تصوير المواجهات الفعلية بالأساليب الأدبية أو الفنية التي كان يمارسها من سجلوها. أما المواجهات المتخيلة فلا يمكن أن تكون روائية تماما، بل إنها تكون متوقعة كامتداد أو تحوير للمعروف. إذ إن مصر القديمة ذاتها تعتبر بلادا غامضة بالنسبة إلى الأوروبيين المعاصرين، لأنها تفرض مشاكل خاصة بها في مجال العرض والترجمة في الخطاب الأكاديمي.

وهناك تعليق على الانتشار المحير لما يعتبره الأوروبيون "المنظور الملتوي" في الفن المصري القديم، حيث يصور جسم الإنسان بحيث يكون تصوير جذع الإنسان من الأمام، بينما تصور الأذرع والأرجل من الجنب. فإذا كانوا يصورون الناس بهذه الطريقة لحوالي ٢٠٠٠ سنة، فهل كان المصريون ينظرون إلى العالم بهذه الطريقة في الواقع؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا استمروا في تصوير جسم الإنسان بهذه الطريقة؟ وهناك من يعارض النظرية التطورية في الفن ، والتي ترى أنه يتقدم باستمرار نحو المزيد من الواقعية. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف نجح الفنانون اليونان التقليديون في ٢٠٠ سنة فقط في إجادة حيل التصغير والضوء والظل لتحقيق تجسيد حقيقي. من المؤكد أن حدوث تغير في كل "وظيفة" الفن هو الذي يمكن أن يفسر مثل هذه الثورة. وظهر قول بأنه لا يوجد نمط فني واحد يستطيع تصوير العالم بكل تفاصيله. فالأنماط مثل اللغات تختلف في تتابع التفاصيل وفي عدد الأسئلة التي يسمح للفنان بطرحها. فالتمثيل الصحيح لمبنى أو مشهد هو الذي لا ينقل معلومات خاطئة إلى من يعرفون أسلوب الفنان الذي رسمه.

وبالطبع فإن غياب "المنظور" التقليدي لم يمنع من تصوير المشاهد الروائية المعقدة، ولا من حفر صور مقنعة لمختلف الفراعنة بالتفصيل. ولا يزال هناك جدل كبير حول ما إذا كان الناس ينظرون إلى العالم بالطريقة التي يرسمونه بها. حيث تتطور الأساليب لتصوير ما يعتبر مهما أو مفيدا، وذلك حسب السياق الثقافي الذي ينتشر فيه هذا الأسلوب. فالفن يمكن أن يعلمنا كيف ننظر إلى العالم بطريقة مختلفة، ومع ذلك يظل تمثيلنا للعالم مقيدا دائما بالأساليب التي

نتبناها لتحويل إدراكنا إلى وسيط مادي. وهكذا نجد في مواجهة المصريين مع الشعوب البحرية الغامضة أن النصر كان نعمة من الآلهة التي كوفئت بنقل الأسرى والغنائم إلى ملكية المعبد. وكان لا بد من تسجيل تقديم هذا الشكر المتبادل بالتفصيل، وذلك في صورة وثيقة رسمية معروضة بصورة رمزية. ومع ذلك، كانت سجلات الصراع مع الشعوب البحرية تعتمد على الأساطير التي تصف تشكيل وإعادة تشكيل نظام الكون. حيث تم وضع مشاهد انتصار الملك على الغرباء على مدخل وجدران المعبد، لأن البلاد الأجنبية كانت تجاور وتحيط بمصر التي كانت مكانتها الاجتماعية الكاملة تتساوى مع كمال مكانة العبد. وتم تصوير الملك أكبر من بقية الناس، بينما كان يجب أن يظهر العدو بلا قائد، بل إن القادة الفعليين لم يحظوا بالأهمية المصورة أو المكتوبة.

ويتمثل التحدي هنا في تعلم كيفية فهم الفن المصري بالأسلوب المستخدم، وكيفية قراءة ما بين السطور، والتأكد بقدر الإمكان مما نريد أن نجده في سجل تاريخي. حيث يقدم مشهد معركة بلاد مدينة حابو مؤشرات على القدرات العسكرية للشعوب البحرية. ويكشف أن الشعوب البحرية كانت تستخدم العربات الحربية والمشاة (مع عدم ذكر العربات في النص). ويناقض التصوير المتكرر الواضح لقائد شعوب البحر تصويرهم على أنهم شعوب بربرية فوضوية.

وكذلك كان تمثيل المصريين القدماء للعالم يأخذ غالبا شكل صور رمزية للكون لأغراض مقدسة، وليس لتوضيح طرق الرحلات البرية؛ ومع ذلك، لم يمنع هذا من ظهور الخريطة الجيولوجية التفصيلية الاستثنائية لإقليم تعدين الذهب على البردي، وربما كانت هناك خرائط أخرى لأغراض عسكرية أو تجارية. فكيف إذن يجب أن يفسر الأثري جداريات الملكة حتشبسوت التي تصور بلاد بونت الغامضة؟ حيث يحتوي معبدها على أوضح أمثلة الحقبة الفرعونية النادرة التي تصور بلادا خارج مصر بسكانها ومشاهدها. ولكن ما يبدو غريبا هو أنه بالرغم من وجود تقارير مكتوبة عديدة عن بلاد بونت في مصر، إلا أنه لم تذكرها أية ثقافة أخرى معاصرة. والسؤال الآن: ما المعلومات التي تحتويها هذه التقارير وتخبرنا بها عن بلاد بونت، وليس عن التصور المصري لها. فمثلا، نجد أن لون بشرة سكان بلاد بونت مثل المصريين، في حين كان لون بشرة الأفارقة يظهر بصورة مختلفة في الرسومات الجدارية المصرية. وهكذا يمكن أن نتساءل عما إذا كانت هذه التفاصيل تكشف عن أن بونت كانت تقع في شبه الجزيرة العربية، وليس في أفريقيا جنوب الصحراء. حيث تظهر جداريات حتشبسوت وجود مساكن مسقوفة بالقش بصورة مميزة، وأشجار نادرة، وحيوانات غريبة، بينما تصور ملكة بونت على أنها بدينة جدا. ولكن يظل التساؤل حول ما إذا كانت الطبيعة الاستثنائية لهذه الصورة تعتبر دليلا على صدقها. فلم يكن المصريون مهتمين ببلاد بونت كمصدر للموارد الاقتصادية القيمة فقط، بل كان لبلاد بونت وجود مواز كمشهد مكتوب، على الحدود بين عالم البشر وعالم الآلهة. وربما كانت بدانة الملكة تعبيرا عن مفهوم ولاء الأجانب، بنفس الطريقة التي يدل بها حجم الفرعون على المكانة الاجتماعية. وكانت الإلهة حتحور تسمى أحيانا "سيدة بونت". وكانت حملة بونت تثير فكرة الانتقال إلى أرض الآلهة والعودة إلى مصر، مصحوبة بالروائح الإلهية وصفات الأماكن البعيدة.

وفي كلمة الختام يجب التنويه إلى أن عدة ملامح بارزة للسلسلة التي ينتمي إليها هذا الكتاب. فأولا، هناك المحاولة العامة لنقل دراسة "مصر القديمة" إلى التيار الرئيس للتقدم المعاصر في الممارسات والتفسيرات الأثرية والأنثروبولوجية. وهذه نتيجة طبيعية بالنسبة إلى معهد الآثار في جامعة لندن، باعتباره المضيف الأكاديمي، لأنه أحد أكبر أقسام الآثار في العالم. وقد استفادت كل الفصول المعروضة هنا من المناقشات الموسعة بين الخبراء من مختلف التخصصات الأكاديمية، ومنها تاريخ الفن، علم البرديات، الأنثروبولوجيا، الآثار، المصريات، بالإضافة إلى المراجعة اللاحقة.

وقد تعرض علم المصريات للانتقاد بحجة أنه منعزل عن سياقات أخرى. فعلى سبيل المثال، نجد أن مكانة ودور مصر القديمة في التاريخ الأفريقي نادرا ما كانت تحظى بالاهتمام المشترك من كل من علماء المصريات وعلماء الدراسات الإفريقية. ومن ثم فإن هذا التعاون – والذي يتجلى في الكتاب الذي بين ايدينا - يقدم مراجعة محفزة للقضايا الرئيسة، ويمكن أن يؤثر على طرق دراسة مصر مستقبلا. فحتى الآن، نادرا ما كانت تثار تساؤلات حول طرق تفكير المصريين في ماضيهم، أو حول الأماكن والشعوب غير المصرية.

وهناك سمة خاصة لهذه السلسلة تتمثل في طريقة صياغة وإعداد الكتب التي تضمها السلسلة بحيث تترابط وتوضح بعضها بعضا. فعلى سبيل المثال نجد الأدلة على خصائص مصر المتغيرة عبر العصور . من العصر الكلاسيكي حتى الحركة الإفريقية المعاصرة . تظهر في عدة مجلدات. حيث يستكشف أحدها المصادر الحقيقية للمعرفة بمصر القديمة قبل ظهور "علم الآثار" العلمي، بينما يستكشف مجلد آخر المعرفة بمصر القديمة بعد حملات نابليون بونابرت واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. ومع ذلك، يتمثل السؤال المطروح في كل هذه المجلدات في مدى اعتماد الخيال والحقيقة في المعرفة بمصر القديمة على مصادر الأدلة، وليس الاهتمامات أو المصالح السياسية أو التجارية الخارجية.

ونتيجة لهذه السلسلة، فإن دراسة مصر القديمة سوف تتمتع بالثراء والعمق كثيرا. حيث تتخطى أهمية مصر وجود آثارها التاريخية لعدة آلاف من السنين، وتمتد إلى دورها الفريد في تاريخ المعرفة الإنسانية. وكذلك فإن حضارة مصر القديمة تتحدث إلينا بقوة خاصة في عصرنا هذا، ولها مكانة دائمة في نفوس المعاصرين.